



العلم والثقافة بالمغرب الأوسط في القرن 9هـ/15م

العلوم والكتب الأكثر تداولاً

د. محمود بوعباد

مستشار لدى رئيس الجمهورية.

إن القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي هو القرن الثالث والأخير من حياة الدولة الزيانية التي أسسها السلطان يغمراسان بن زيّان في المغرب الأوسط، وقد اكتمل في عهد هذه الدولة تكوين المجتمع القاطن في هذا القسم من المغرب الكبير، وأصبحت بنيته في الشكل الذي يبدو عليه اليوم، إذ أصبح اللسان العربي لغة الكتابة والتخاطب لِجُلِّ السكان، وتوطّد المذهب السنّي في العقائد، وتمّ رسوخ المذهب المالكي في الفقهيات.

ورغم الحن والأهوال التي ترّبت من جهة أولى، على العدوان الدائم من طرف الدولتين المجاورتين الحفصية والمرينية، وعلى الفتن والأزمات السياسية الداخلية من جهة ثانية، فإنّ الحركة العلمية بقيت نشيطة في هذا القرن التاسع. ويشهد على هذا النشاط بروز العدد الكبير من العلماء الذين أنجبهم هذا العصر وقد تمتّع بعضهم بشهرة تجاوزت حدود البلاد، كما أن مؤلفات كثيرة ظهرت

إلى الوجود في هذه الفترة التاريخية. وإن عددا منها قد حظي برواج كبير ليس داخل القطر فحسب، ولكن في باقي العالم الإسلامي. ومنها مازال إلى يومنا، يُدرّس في الجامعات الإسلامية التقليدية. ويشهد أيضا على النشاط الفكري، ترحال عدد من العلماء والطلبة من الأقطار الإسلامية الأخرى، إلى المملكة الزيّانية قاصدين مدارسها ومجالس علمائها. ومن الملاحظ أن ملوك البلاد عرّفوا وذلك ابتداء من مؤسس الدولة الزيّانية، بُنصرهم للعلم، وبإكبارهم شأن العلماء والأدباء، وبتنافسهم على تأسيس المدارس.

أكثر العلماء شهرة .

وقبل أن نتعرّض للعلوم والمصنّفات التي كانت متداولة في حلقات الدروس بمساجد المغرب الأوسط ومدارسه، سواء في تلمسان العاصمة أو في المراكز العلمية في باقي القطر، رأينا من المفيد أن نستعرض أشهر العلماء الذين أنجبتهم البلاد في هذا العصر، وأن نشير إشارة خاطفة إلى أهم اهتماماتهم العلمية. وقد ربّنا هؤلاء المشاهير الذين زاولوا كلهم التدريس، حسب تواريخ وفياتهم.

ونبدأ بذكر سعيد العُقباني المتوفى سنة 811هـ/1408 م. وقد عُرِف باعتائه بالتفسير، وبالفقه، والأصول، والفرائض، والمنطق، والجبر.

- ويليهِ محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842هـ/1438م، وقد نعتَه أحمد بابا في " نيل الابتهاج " بالفقيه، والمجتهد، والأصولي، والمفسر، والمحدث، وكذلك بالمقرئ، والمُجَوِّد، والنحوي، واللغوي، والبياني، والعروضي¹
- ثم أحمد بن زاغو المتوفى سنة 845هـ/1441م، وقد اهتم بالتفسير، والحديث، والأصول، والفرائض، والمنطق،
- ثم أبو الفضل المَشْدَلِي، المتوفى سنة 867هـ/1463م. وعُرف باشتغاله بالتفسير والحديث، والأصول، والفرائض، والحساب،
- ثم محمد الحَبَّاب المتوفى أيضا سنة 867هـ/1463م. وهو الفلكي المشهور، وقد أشار أصحاب التراجم إلى اهتمامه بالفرائض أيضا،
- ثم محمد بن أحمد العُقْبَانِي المتوفى سنة 871هـ/1467م، وهو فقيه اشتهر بكتابه في الحِسبة، وعنوانه "تحفة الناظر، وغنية الذاكر، في حفظ الشعائر، وتغيير المناكر"²،
- ثم عبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة 875هـ/1471م. فقيه اعتنى بالتفسير، وأشهر كُتبه الجواهر الحسان في تفسير القرآن³،
- ثم يحيى المازوني المتوفى سنة 884هـ/1478م. فقيه اشتهر بكتابه "الدُرر

¹ - نيل الابتهاج، ص 450.

² - نُشر هذا الكتاب في "مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق"، ع. 17، سنة 1965-1966، بتحقيق علي شنوفي،

دمشق، 1967.

³ - نُشر هذا التفسير بتحقيق عمار طالي - الجزائر، 1985.

المكنونة في نوازل مازونة⁴. وقد جُمع فيه كما قال أحمد بابا " فتاوى المتأخرين: أهل تونس، وبجاية، والجزائر، وتلمسان، وغيرهم"⁴.

وبعد ذكر هذه الكوكبة الأولى من العلماء، ننتقل إلى ذكر أشهرهم وهو محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة 895هـ/1490م، وقد اشتغل بمجالات علمية كثيرة منها التفسير والحديث، والفقه، والفرائض، والنحو، والمنطق، والطب، وقد نبغ على وجه الخصوص في علم الكلام الذي صنّف فيه أشهر مؤلفاته.

- ونذكر بعده محمد بن عبد الله التنسي المتوفى سنة 899هـ/1494م، وقد اشتهر بلقب "الحافظ التنسي" لنبوغه في علم الحديث، وهو فقيه، ومحدث. اهتم اهتماما كبيرا بالتاريخ، وبالأدب، واشتهر بكتابه "نظم الدر والعقيان، في بيان شرف بني زيان، وذكر ملوكهم الأعيان"⁵.

- ونختتم قائمة هذه النخبة من أشهر المشاهير بذكر الفقيه أحمد الونشريسي المتوفى سنة 914هـ/1508م مؤلف "المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"⁶.

⁴ - نيل الإبتهاج... ص. 637، ولا يزال الكتاب مخطوطا، وتملك المكتبة الوطنية الجزائرية نسخة منه في مجلدين.

⁵ - قمنا بتحقيق القسم التاريخي من الكتاب، وقد نُشر ضمن "إصدارات المكتبة الوطنية"، تحت عنوان "تاريخ بني زيان ملوك تلمسان"،

الجزائر، 1405هـ/1985م، وقام بتحقيق القسم الأدبي من الكتاب محي الدين بوطالب تحت عنوان "نظم الدر...، الجزائر، 1414هـ/1993م.

⁶ - نُشر "المعيار" بإشراف محمد حجي، بيروت، 1401هـ/1981-1983م.

العلوم الأكثر تداولاً.

وبعد العرض السريع لأسماء من اشتهر من العلماء في القرن التاسع، وذكر أهم انشغالاتهم العلمية، تنتقل إلى الحديث عن العلوم السائدة في حلقات الدروس بمساجد المراكز العلمية المتناثرة في المغرب الأوسط وبمدارسه. وأوّل ما يسترعي الانتباه هو المكانة المتميّزة التي كانت تحتلّها العلوم الدينية، وإنه لمن البديهي أن تكون العلوم الدينية في المقام الأول من بين اهتمامات المدرّسين وطلاب العلم، في مجتمع رسخت الديانة الإسلامية أكثر من ذي قبل، في نفوس أبنائه كما سبق وأن ذكرنا.

وقد عرّف هذا العصر بعد الزوبعة الفكرية التي أحدثتها المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحّدية وخلفاؤه من بعده، انتصار مذهب أهل السنة، وانتصار الفقهاء المالكية، كما تميّز العصر بظاهرة جديدة، وهي انتشار أفكار الصوفية بين الطبقات الشعبية والأخذ بممارساتهم، وبقبول علماء الدين لهذه الأفكار، واحتذاء سلوك أصحابها في الغالب. ومن المعروف أن الفقهاء كانوا قد نصبوا العداء زمناً طويلاً لتعاليم المتصوفة، وقاوموا ممارساتهم.

ونلفت الانتباه من جديد إلى هذه المعطيات لأنها سيكون لها الأثر الأكبر في تداول عدد من العلوم، وعدد من الكتب دون غيرها، فترتّب على هذه العوامل وهذه المميّزات، أن وجّه العلماء اهتمامهم لهذه العلوم الدينية وخاصة منها الفقه، وعنوا بعدد من الكتب الفقهية المشهورة سيأتي ذكرها،

يشرحونها، ويعلقون عليها، ويلخصونها، ويستعملونها في حلقات دروسهم، وقد شملت عنايتهم مؤلفات الصوفية، كما قاموا بجمع الفتاوى التي صدرت عن أسلافهم وعن معاصريهم، وسرى أن هذا الميل إلى الملخصات والشروح لم يكن وقفا على الفقه، وباقي العلوم الدينية. ونودّ أن ننبّه إلى أن هؤلاء العلماء لم يلتفتوا إلى الأبحاث النظرية ما عدا علم الأصول الذي استرجع شيئا من مكانته بفضل الحركة الموحّدية. ولم يرد أيضا في كل التراجم التي قمنا بمسحها، ذكر للاهتمام بالفلسفة، كما لم يأت ذكر أي كتاب في هذه المادة، إذ أن تغلب الفقهاء المالكية على مناوئهم، جعلهم ينصبون الحرب للفلسفة وللflasفة، ويكفّرون كل مشتغل بها.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن جلّ هؤلاء العلماء أولّوا عنايتهم للفروع فقط، في العلوم كلها، كما أنهم حرصوا حرصا كبيرا على تبليغ المعارف التي تلقوها من شيوخهم في حلقات الدروس، وفي الكتب والرسائل التي صنّفوها، إلا أن هذا النشاط لم يتسم بأيّ تحديد وبأيّ نقد. وكان الهدف الديني ناصبا دائما أمام عيون العلماء عندما كانوا يلقون الدروس، أو يخوضون في تأليف الكتب، فكانوا يقدمون المبرر الديني وطلب الثواب في الآخرة، في ديباجات مؤلفاتهم كلها، حتى لو لم تكن العلاقة بين الموضوع المعالج وبين الدين، واضحة كل الوضوح.

وقد اهتم جلُّ علماء العصر في هذا المجال الديني بالقرآن الكريم. إذ قلَّما نجد ترجمة عالم من العلماء، لم يُذكر فيها أنه عني بالتفسير، كما أن علماء المغرب الأوسط اشتهروا بعنايتهم الكبيرة بعلوم القرآن وبتفوقهم فيها، وتأتي في مقدمة هذه العلوم القراءات، ورسم المصاحف، ولا زالت إلى يومنا هذا، طبعات المصحف الشريف، تعتمد في أغلب البلدان الإسلامية على كتاب العالم الجزائري محمد بن عبد الله التنسي "الطراز في شرح الخراز" لإحكام كتابة المصاحف⁷. فعلى سبيل المثال وردت الإشارة إلى "الطراز..." وإلى مؤلفه، في كل المصاحف التي يقوم بطبعها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، فنجد في نهاية المصاحف المختلفة الصادرة عن هذه المؤسسة الجملة التالية: "وأخذت طريقة ضبطه كما قرَّره علماء الضبط على حسب ما ورد في كتاب "الطراز على ضبط الخراز" للإمام التنسي"⁸.

ونال علماء هذا القطر شهرة كبيرة باهتمامهم بالحديث النبوي الشريف يحفظونه ويشرحون مجاميعه المشهورة في مصنفاتهم وفي دروسهم، وسبق لنا أن أشرنا إلى أن محمد التنسي لُقِّبَ بالحافظ التنسي لنبوغه في علم الحديث وكثرة حفظه.

⁷ - سبق ذكر الحافظ التنسي.

⁸ - ولا أحد لا من علماء الدين، ولا من القائمين على طبع المصاحف ممن سألتهم، يعرف من هو الإمام التنسي، ولا أين موطنه، ولا في أي عصر عاش. وحسب علمي مازال الكتاب لم يُنشر بعد، وتحفظ المكتبة الوطنية الجزائرية بنسخة منه.

واشتغل عدد كبير من العلماء بعلم الفرائض، وكثيراً ما كان الاختصاصي في علم الفرائض بارعاً في علم الحساب لترابط العلمين.

أما علم الكلام فقد برز فيه محمد السنوسي كما ذكرنا سابقاً، وأُلف فيه أشهر كتبه. ونلاحظ أن الاهتمام بعلم الكلام لم يتردد في تراجم علماء العصر، ولم يرد ذكره إلا نادراً في الكلام عن الدروس التي كانوا يلقونها، على أن المنطق وهو ذو علاقة وطيدة بعلم الكلام، قد حظي باهتمامهم.

ومن العلوم الدينية تنتقل إلى اللغة والأدب، ونستهلّ كلامنا بذكر علم النحو الذي أولاه العلماء عناية فائقة، كما اهتموا بعلم العروض وبعلم البلاغة. أما الأدب فإن كتب التراجم لا تشير إليه إلا نادراً، إذا استثنينا المدائح النبوية التي لها ارتباط واضح بالدين، وقد شاع الاهتمام بها نتيجة نفاذ أفكار الصوفية في الحياة الدينية، وبسط نفوذهم في الحياة الفكرية وفي الحياة الاجتماعية. وهذا لا يعني أن أدب المرح والتسلية لم يحظ بأية عناية في هذا العصر. فإن صدور مثل كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان... للمؤرخ محمد التنسي، والذي فاق القسم الأدبي فيه القسم التاريخي، يشهد على اهتمام أهل العلم بالنظم والنثر، من أجل التسلية.

وإذا انتقلنا إلى العلوم البحتة والعلوم التطبيقية نلاحظ في مقدمتها، علمي الحساب والجبر كما وجّه العلماء عنايتهم إلى الهندسة والفلك. ومما

لا شك فيه أن تداول أغلب هذه العلوم لم يخلُ من أهداف دينية كما سبق وأن ذكرنا. هذا ولم تتل العلوم الأخرى مثل الكيمياء، والجغرافيا، والفلاحة أية عناية. أمّا الطبّ فإن ما ذكره الرحّالة المصري عبد الباسط بن خليل الذي زار المملكة الزيّانية في النصف الثاني من القرن التاسع بقصد تعلم الطبّ وتعاطي التجارة في الوقت نفسه، يُثبت لنا بأنّ تدريس هذا العلم كان موجوداً بالعاصمة الزيّانية في هذا العصر⁹.

الكتب الأكثر تداولاً.

بعد الفراغ من عرض العلوم الأكثر تداولاً في حلقات الدروس بمدارس المغرب الأوسط وبمساجده في هذا القرن التاسع الهجري، نتقل إلى ذكر الكتب المستعملة أكثر من غيرها في حلقات الدروس هذه. ونودّ أن نذكر أننا حصلنا على هذه العناوين بالرجوع إلى كتب التراجم حيث يذكر كُتاب هذه التراجم، المؤلّفات التي يُقرئها صاحب الترجمة، والتي يشير إليها التلاميذ الذين أخذوا عنه. ولم نحفظ من بين الكتب الكثيرة المذكورة في هذه التراجم، إلا بالعناوين التي تكرّر ذكرها، وقد ربّناها حسب الفنون مبتدئين بالقرآن الكريم وعلومه.

مع أنّ كتب التراجم قد تكرّر فيها ذكر العناية بتفسير القرآن الكريم وقد ذكرنا في ما تقدم أن جُلّ علماء العصر قد اهتموا بالتفسير، ومع أن بعض

⁹ - راجعوا مقالنا "رحلة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع"، في الأصالة، العدد 24، مارس - أبريل 1975، ص 124-135.

العلماء قد أَلَّفُوا في التفسير، وقد سبقت الإشارة إلى الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن الثعالبي، قلنا مع هذا، فإننا لم نعثر إلا نادراً على ذكر عنوان كتاب في التفسير كان العلماء يعتمدون عليه في دروسهم للطلبة، أو في دروسهم العمومية. ومن الغريب أننا صادفنا ذكر الكشاف، وهو التفسير الذي أَلَفَهُ العالم المعتزلي محمود جار الله الزمخشري، وهذا رغم تفهقر الاعتزال في كافة العالم الإسلامي، وحلول المذهب الأشعري محلّه، ورغم العداء السافر الذي نصبه علماء الكلام والفقهاء للمذهب المعتزلي، وللمعتزلة.

ومن كتب القراءات ورسم القرآن، نذكر - "حز الأمانى ووجه التهاني" وهو الكتاب المعروف باسم الشاطبية وهو من نظم أبي القاسم الرعيني الشاطبي لكتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني. ومن قام بشرحه محمد بن يوسف السنوسي. - والكتاب الثاني هو الخراز أو ضبط الخراز وهو عنوان مختصر لـ : "مورد الظمان في رسم أحرف القرآن" لمحمد الشريشي الشهير بالخراز. وسبق أن ذكرنا أن محمد التنسي مؤرخ ملوك بني زيان، قام بشرح القسم الخاص بالضبط من مورد الضمان وسماه الطراز في شرح الخراز.

وإذا انتقلنا إلى علم الحديث، نلاحظ أن صحيح البخاري تكرر ذكره في عدد كبير من تراجم أساتذة العصر، ويأتي صحيح مسلم في الدرجة الثانية،

ويليه الموطأ للإمام مالك، كما اشتهر بين الدارسين كتاب الأربعين حديثاً النووية، جمع يحيى النووي.

ومن كتب السيرة النبوية كان كتاب الشفا للقاضي عياض الأكثر تداولاً في حلقات الدروس. والعنوان الكامل للكتاب هو الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

ومن كتب الأصول الرائجة في هذا القرن، نذكر - ابن الحاجب الأصلي والعنوان الحقيقي للكتاب هو منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل لعثمان بن الحاجب. ومن الملاحظ أن كتب ابن الحاجب في الفقه والأصول، كانت كثيرة الرواج في البلدان التي انتشر فيها مذهب الإمام مالك.

- ومن كتب الفقه التي كثر تداولها في حلقات الدروس تأتي في المقدمة - المدونة لعبد السلام التنوخي الملقب بسحنون.
- ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.
- ومختصر ابن الحاجب السابق ذكره، وعرف هذا الكتاب أيضاً باسم ابن الحاجب الفرعي. وعنوانه الحقيقي هو المختصر في الفروع، وقد حظي هذا المصنف بالإضافة إلى كثرة تداوله في التدريس، بشروح وتعليق قام بها عدد

من فطاحل علماء العصر مثل السنوسي، والونشريسي، وأبي زيد بن الإمام،
وسعيد العقباني، وابن مرزوق الحفيد.

- ومن كتب الفقه التي شاع استعمالها أيضاً مختصر خليل بن إسحاق⁹

ومن كتب الفرائض استعمل المدرّسون

- الحوفي وعنوانه الكامل كتاب الفرائض، لمؤلفه أحمد بن خلف الحوفي،
كما أكثروا من استعمال الأرجوزة في الفرائض، من نظم أبي إسحاق بن أبي
بكر التلمساني الوشقي. واشتهرت هذه الأرجوزة باسم التلمسانية،
وقد كانت موضع شروح كثيرة. ومن قام بشرحها في العصر محمد الحباك،
وأحمد بن زاغو.

ومن كتب التصوف، شاع تداول

- حكم بن عطاء الله¹⁰ من تصنيف تاج الدين أحمد بن محمد الإسكندري
المعروف بابن عطاء الله الشاذلي. وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في
الأوساط الصوفية. وذكر ابن مريم في البستان، أن الصوفي الشيخ زروق
شرحه تسعاً وعشرين شرحاً¹⁰.

ومن الكتب الدينية التي كانت لها مسحة أدبية، نذكر البردة، وهي
القصيدة المعروفة التي نظمها في مدح النبي (ص)، شرف الدين محمد الصنهاجي

¹⁰ - البستان، ص. 46.

المعروف بالبوصيري، وعنوانها : **الكواكب الدرية في مدح خير البرية** . وقد كانت موضع عناية كبيرة، إذ كانت تُدرّس، كما قام عدد من العلماء بشرحها، نذكر منهم العالم الرياضي الفلصادي، وابن مرزوق الحفيد الذي خصّها بثلاثة شروح مختلفة، وسعيد بن محمد العقباني.

ومن كتب النحو الرائجة في ذلك العصر، تأتي في المقدمة أرجوزة محمد بن مالك المعروفة باسم **الألفية**،
- كما استعمل المدرّسون **الأجرومية** باسم مؤلف هذا الكتاب، وهو محمد الصنهاجي المعروف بابن أجروم. والعنوان الكامل للكتاب هو " المقدمة **الأجرومية في مبادئ علم العربية** ".
- واشتهر أيضا لدى طلاب العلم كتاب **الجمال** للزجاجي، وعنوانه الكامل هو **الجمال الكبرى في النحو**، ومُصنّفه هو عبد الرحمن الزجاجي،
- وكذلك **المغني لابن هاشم**، وهو اختصار للعنوان الكامل الذي هو **مغني اللبيب عن كتب الأعراب** لعبد الله بن هشام،

ومن كتب النحو المتداولة نذكر أيضا
- **التسهيل** لابن مالك ناظم الألفية، وعنوانه الكامل **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** .

ومن كتب البلاغة شاع استعمال
- "التلخيص"، وهو عنوان مختصر لكتاب "تلخيص المفتاح في المعاني والبيان"
لجلال الدين القزويني.

ومن كتب العروض الرائجة في حلقات الدروس
- "الخزرجية"، وهي قصيدة من نظم الحسن بن علي الخزرجي، وعنوانها
الكامل هو "الرامزة الشافية في علمي العروض والقافية".
وفي علم المنطق استعمل المدرسون

- "الجمل"، وهو عنوان مختصر لكتاب "الجمل في مختصر نهاية الأمل في
المنطق" لأفضل الدين محمد الخونجي، وقد قام بشرحه عدد من كبار علماء
المغرب الأوسط منهم أبو عبد الله الشريف، وسعيد العقباني، ومحمد السنوسي،
ومحمد المَشْدَّالي.

ومن كتب الحساب والجبر اشتهر
- "التلخيص" وعنوانه هو "تلخيص أعمال الحساب" لأبي العباس أحمد بن
البناء.

وكان هذا الكتاب موضع شروح كثيرة، قام بها علماء من المغرب
الأوسط، نذكر منهم ابن زاغو، والحبَّاك، وسعيد العقباني، كما شرحه العالم
الرياضي الأندلسي القلصادي الذي أقام مدة في تلمسان حيث انتفع

من دروس شيوخها، وألقى فيها دروساً. هذا وقد قام ابن مرزوق الحفيد بنظم تلخيص ابن البناء.

هذه هي الكتب التي كثر تداولها أكثر من غيرها في الدروس التي كان يلقيها علماء القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في مدارس المغرب الأوسط ومساجده على طلاب العلم، وعلى الجمهور في الدروس العمومية.

سبب تداول هذه الأنواع من الكتب .

وبعد العرض السريع لأسماء أشهر العلماء الذين كانت لهم اليد الطولى في التأليف وفي التدريس، وبعدما انتهينا من ذكر العلوم والكتب الأكثر تداولاً في المعاهد العلمية بالمغرب الأوسط - ونلاحظ أن عدداً كبيراً من هذه الكتب كان من تأليف علماء المغرب والأندلس -، يبقى لنا أن نفحص هذه المعطيات التي بين أيدينا ونحللها، فنبيّن أسباب رواج علوم دون أخرى، وأسباب الإقبال على عدد من المؤلفات دون غيرها، ونستخلص دروساً وعبراً قد تنير طريقنا فيما نستقبل من أيام .

ونُسرّع هنا إلى التذكير من جهة أولى، بما كان من أثر لانتصار الفقهاء وتفوقهم على غيرهم من العلماء، ومن أثر تمسكهم وتمسك عامة الجماهير في أعقابهم بالمسائل الفرعية، وبالمجادلات العقيمة، وبالاختلافات، كما نُسرّع إلى التذكير من جهة ثانية، بانتشار تعاليم الصوفية وممارساتهم، وتفضيل أكثرهم

الخمول والتواكل وعدم الاعتماد على النفس. فكان لكلتا الظاهرتين الأثر البين، كما سبق وأن أشرنا، على تداول علوم ومؤلفات دون أخرى. ومما يستوقف الانتباه أيضا-وقد لحنا إلى ذلك منذ حين- أن المدرّسين كانوا يفضلون الكتب التي كانت من تأليف علماء المغرب والأندلس. ونحن إذا تأملنا هذا الأمر، لاحظنا أن الغرب الإسلامي كان قد امتاز منذ قرون، على غرار أقاليم دار الإسلام الأخرى التي كانت لها أيضا خصوصياتها، قلنا امتاز بشخصية برزت في اهتمامات أهله العلمية، وفي مجالات الحياة الاجتماعية، والأدبية، والفنية لسكان المنطقة، من هندسة معمارية، وفنون جميلة، وموسيقى، وملبس، ومأكل وغيرها من مظاهر الحياة، مما ملئت بأخبارها كتب التاريخ والأدب والرحلات. فلا غرابة إذن أن يميل أهل الإقليم إلى نتاج مواطنيهم الفكري، وأن يفضلوه على مؤلفات الغرباء.

إننا قد بينا سابقاً أن أكثر الكتب المتداولة في هذا العصر، كانت شروحا لمتون، أو شروحا لمختصرات كان قد ألف أحيانا عددا منها الشراح أنفسهم، أو كانت نظما على شكل اراجيز للعلوم المدروسة. ومما يلاحظ أننا نادرا ما نجد من بين هذه المصنفات المتداولة مؤلفات اتسمت بالابتكار والإبداع.

وحتى نستوفي الأمر حقّه، نرى لزاما علينا أن نغادر ربوع المغرب الأوسط، والقرن التاسع الهجري موضع حديثنا، لنلقي نظرة على الوضع السائد في هذا القرن بباقي العالم الإسلامي. فمن المعروف أن هذا الجزء من الكرة الأرضية كان يعيش منذ عدد من القرون، أزمة حضارية عميقة وخطيرة، أصابت مجالات الحياة كلها. وقد أطلق المؤرخون على هذا العهد الطويل من الانزواء ومن التفهقر السياسي، والعلمي، والاجتماعي اسم "عصر الانحطاط".

وأمام تغلب الأعداء الكثيرين على دار الإسلام في المشرق وفي المغرب، وأمام تدهور أحوال معيشتها، لجأت الشعوب الإسلامية إلى الشعائر الدينية، متمسكة على الخصوص بتعاليم الصوفية وبممارساتهم، ومعتمدة على التواكل والزهد في الدنيا، "لأن الناس - كما قال أحمد أمين" فقدوا الدنيا، فتطلعوا إلى الآخرة، ويئسوا من العدالة الاجتماعية في الأرض، فأملوها في السماء"¹¹.

وإذا رجعنا إلى العلوم المختلفة ومجالات الحياة الثقافية، لاحظنا أن الانحطاط كان قد لحق تباعا هذه المجالات. وقد اتسم نشاط العلماء بعد أن أُغلق باب الاجتهاد، وبعد أن انتهى عصر الأئمة والعلماء الكبار، بالتبعية والتقليد، وبعدم الثقة في العقل، وقد أخذ مكانه النقل عن السلف، وانتهى عهد التجديد والابتكار في التأليف إلا في القليل النادر، واقتصر دور العلماء على

¹¹ - ظهر الإسلام، ج5، ص 219.

تأليف المختصرات، وكتابة الشروح، وجمع ما تفرق من إنتاج السلف. وقد كانت الحركة الأدبية أشد انحطاطاً وتدهوراً من الحركة العلمية.

كان العالم يختصر علماً من العلوم، أو يُنظِّمها في أرجوزة، بهدف تسهيل تحصيله من طرف الطلاب. وكانت النتيجة في الغالب عكس ما كان يصبو إليه. فكان مختصره يبدو غامضاً، وكان أكثره عويص الفهم، فيضطر هو نفسه أو علماء آخرون، إلى القيام بشرحه من أجل تقرّيبه للطلاب. وكان الشرح يتبع الشرح، وقد أحدثت أسماء مختلفة للتمييز بين هذه الشروح المتتابعة، فسمّوا التعليق الأول بالشرح، تتبعه الحاشية التي تليها الطرة وهكذا. فغرق طلاب العلم في بحر من المطوّلات. ونودّ أن نشير إلى أن شروحاً كثيرة ومختلفة للمصنّف الواحد قد تكرّرت. وقد ذكرنا في كلامنا السابق أمثلة لهذه الشروح المختلفة للكتاب الواحد. وقد رأينا على سبيل المثال علماً وهو محمد بن مرزوق الحفيد، يخصّ قصيدة البردة بثلاثة شروح مختلفة: الشرح الأصغر، والشرح الأوسط، والشرح الأكبر، كما رأينا أن العالم الصوفي أحمد زرّوق، قد خصّ كتاباً واحداً أيضاً وهو حكم ابن عطاء الله، بنيف وعشرين شرحاً مختلفاً. وقد ذكرنا شروحاً مختلفة لكتاب واحد قام بها عدد من العلماء المعاصرين.

وقد سادت ظاهرة التقليد والنقل حتى التدريس والكتب المدرسية. وبسبب عدم الثقة في أنفسهم، واعتقاداً منهم أنهم لن يبلغوا أبداً شأن الأئمة والأعلام القدامى الذين برعوا في الفنون كلها، تصوّر علماء العصر في كافة

العالم الإسلامي، أنه لم يبق في متناولهم إلا التقليد، وتبليغ تراث السلف لطلاب العلم والمعرفة من جهة، وتجميع هذا النتاج الفكري وحفظه من الضياع من جهة أخرى. وهكذا اختفت من حلقات الدروس كل المواد التي تحتاج إلى العقل وإلى التفكير، كما اختفت المواد التي ليست لها علاقة بالدين.

وإن البون الشاسع بين الحضارة المنكمشة على تركة الأجداد يجترها الأساتذة وتلامذتهم، وبين تلك الحضارة التي أنارت مسيرة الإنسانية مدة قرون، تلك الحضارة المتفتحة على الحضارات الأخرى، وعلى مؤلفات العلماء مسلمين كانوا أو غير مسلمين، معاصرين أو قدامى، كتبوا بلغة القرآن، أو بلغة أجنبية، من بلد بعيد أو من بلد قريب، فلمعت حلقات الدروس، وزخرت خزائن الكتب بكل العلوم والفنون المعروفة حينذاك، وأتحف العلماء، والفلاسفة، والأدباء، والفنانون الحضارة العالمية سواء في مجال الدين، أو في مجال الأدب، أو في مجال العلوم الدنيوية، أو مجال الفنون الجميلة، بإنتاج فريد المثال، ومؤلفات أثبتوا فيها عبقريتهم وتقدمهم.

غير أن هذه النقائص التي أشرنا إليها يجب ألا تخفي الجانب الإيجابي لهذه الحركة في التدريس والتأليف، ويجب ألا تُنسبنا هذه التحليلات وهذه الاستنتاجات، وهذه المقارنات بين عهدين، فضل أولئك العلماء والأدباء الذين أحسوا في عهد التفهقر هذا، بالأخطار التي كانت تحوم حول دار الإسلام وتهدد كيائها، وحول الحضارة العربية الإسلامية، فحفوا إلى حفظ ما خلف الأجداد،

فجمعوا رصيда ضخما من الإنجازات، سواء كان ذلك في شكل مختصرات، أو أراجيز، أو موسوعات، وقد كان لهم فضل المحافظة على التراث الوطني، وعلى تعاليم الدين الإسلامي، وعلى اللغة العربية. فخلّفوا لنا هكذا بدورهم تراثا جديرا بعنايتنا، علنا نستخلص منه علوما وتعاليم جديدة، تساهم في إنارة طريقنا من جديد، وتساعدنا على الخروج من هذه العتمة التي نتخبّط فيها منذ قرون، وتمكّننا من مجابهة مختلف الأخطار التي تهدد أكثر من ذي قبل مقوماتنا الحضارية والثقافية، وتمس كياننا كأمة.